تقرير

في علاقة السويداء بدرعا في زمن الثورة

همام الخطيب



مركز دراسات الجمهورية الديمقراطية

30-12-2014

همام الخطيب

محلّل في قسم التحليل السياسي والإحصاء في مركز دراسات الجمهورية الديمقراطية

في علاقة السويداء بدرعا في زمن الثورة

همام الخطيب

فهرس المحتويات

مقدمة قسم التحليل السياسي

منذ بداية الثورة، وموضوع التنوّع السوري من المواضيع الشاغلة للناشطين الثوريّين، وأوساط من السياسيين، إلا أنه لم ينل الكثير من الاهتمام في الوسط الثقافي والبحثي. محاولات بعض المثقفين لتناول الموضوع، في مسعى لتصويب التعاطي الميداني والسياسي معه، تلقّت الكثير من اللوم والتقريع من مثقفين آخرين تعددت أسبابهم؛ وإن كان بعضهم بدا حارساً لخطاب النظام وسياسته لأسباب منها: تعطيل قدرة الثورة على الإجابة عن أسئلةٍ ملحّةٍ، يؤدي الفشل في معالجتها إلى تعقيد الوضع السوري برمته. وهذا فعلاً ما حصل، حيث أودى الفشل في وضع تصوّرٍ علميّ للتنوع السوري، وسبل عمل النظام إلى تحويله إلى شبكة أمان له، وتحديد ما يلزم للتعامل معه، إلى سيطرة روايتين، واحدة للنظام الذي رفع لواء حماية الأقليات، دون كثير رفض ممن رفض الحديث عن موضوع الطوائف، ورواية القوى المتطرفة التي قدمت هذا الموضوع على أنه حربٌ للإسلام وعليه، لتذكي من خلالها عوامل التفرقة بين السوريين.

نعمل في مركز دراسات الجمهورية الديمقراطية، منذ كتاب "إستراتيجية سلطة الاستبداد في مواجهة الثورة" المتاح إلكترونياً على موقع المركز، على تناول هذا الموضوع الحساس من أوجهه كلّها. وتأتي هذه الورقة كخطوةٍ أخرى في دراسة علاقة السوريّين البينية، في مسيرة طويلة بحاجة لإسهامات وتصويبات كثيرة.

2014-12-26

مقدمة

السويداء محافظةٌ سوريّة تقع جنوب سوريا، يحدّها من الشمال حوضة دمشق، ومن الجنوب الأردن، ومن الشرق البادية السورية والصفا، ومن الغرب سهل حوران. تبلغ مساحتها 5550 كم مربع، عدد سكانها المتواجدين فيها نحو 350 ألفَ نسمة. يعتمد سكانها بشكل أساسيٍّ على الزراعة والداخل إليها من أموال المغتربين، وتُعتبر من المحافظات الفقيرة في سوريا، وهذا ما جعل معظم شبابها يلتجئون للسفر أو للتطوع في الجيش وأجهزة الأمن.

أما درعا فهي أصغر منها مساحة؛ حيث تبلغ مساحتها 4000 كم مربع، ولكن عدد سكانها أكثر بكثير من عدد سكان السويداء حيث يُقدَّر بمليون وأربعمئة نسمة، ويعود ذلك إلى أن اغتراب الشباب في درعا أقل منه في السويداء، وبسبب انتشار النمط القبلي والعشائري في درعا والذي يحبذ زيادة النسل.

تتصل أراضي السويداء بدرعا عبر ما بات متعارفاً عليه في السويداء (بالقرى الحدودية) وهما خطّان:

أ- الخط الغربي (حرّان- دويرة- تعارة- الدور- سميع) وهذه القرى تتصل بشكل مباشر مع منطقة اللجاة وقرى بصر الحرير وناحتة.

ب- الخط الجنوبي (كناكر- عرى- المجيمر- برد- بكا- ذيبين) وهو خطٌّ متوترٌ جداً.

لمحة تاريخية عن علاقة المحافظتين

ليس الغرض هنا من العودة إلى التاريخ هو استعراض التاريخ بحدِّ ذاته، أو تذكير به، بل لأن هذا التاريخ مازال يُبنى عليه مواقف راهنة إلى الآن، حيث يعتبر بعضُ الدروز في محافظة السويداء أن أهالي درعا خذلوهم إبّان الثورة السورية الكبرى عام 1925 ولم يساندوهم في التصدي للاحتلال الفرنسي، وأن الاحتلال الفرنسي كان يقصف السويداء من أراضي درعا ولاسيّما بصرى الشام، كما يعتبرون أيضاً أن معظم هجمات البدو التي تعرض لها الجبل كانت تأتيهم من الخاصرة الغربية؛ أي درعا.

وفي عام 2000 ظهر لدى أهالي السويداء شعورٌ بالخذلان نتيجة عدم وقوف السوريين عموماً، وأهل درعا بشكلٍ خاص معهم بانتفاضتهم، حيث ارتكبت قوات الأمن السوري مجزرةً راح ضحيتها 22 ضحية وعشرات الجرحى على إثر أحداث البدو.

مع العلم أن هناك صفحاتٍ مشرقةً في تاريخ العلاقة بين المحافظتين، ومنها الحادثة الشهيرة التي وقعت مع الشيخ إسماعيل باشا الرفاعي أحد زعماء حوران عام 1925؛ حيث حاول الفرنسيون إقناع الحوارنة بأن ثورة جبل العرب إذا نجحت ستكون تهديداً لأهالي حوران، وطلبوا منهم مؤازرة الجيش الفرنسي للقضاء على الثورة في جبل العرب، وبعد أن فشلوا في مساعيهم أعطى الجنرال ***"أندريا"*** الشيخ ***إسماعيل الرفاعي*** مهلة ثلاثة أيام ليسير الحوارنة أمام القوات الفرنسية باتجاه جبل العرب، وفي حال الرفض سيكون مصيره الإعدام،

وخلال هذه المهلة تهيأ الشيخ إسماعيل وأسرته ولجؤوا إلى الأردن يرافقهم خمسون فارساً من أبطال حوران وبقيوا مدة سنتين رافضين محاربة أخوتهم في جبل العرب وحكمت عليهم فرنسا بالإعدام غيابياً.

ومن الجدير بالذكر أن أهالي حوران كانوا يؤازرون جبل العرب في ثورته؛ حيث أفسحوا المجال للثورة بالدخول إلى قرى حوران.

لكن رغم هذه الصفحات المشرقة في تاريخ العلاقة بين المحافظتين إلا أن الحساسيات مازالت قائمة وهذا ما استفاد منه نظام الأسد وعمّقه.

علاقة المحافظتين قبل الثورة السورية

نشأت بين المحافظتين علاقاتٌ اقتصاديةٌ قوية، وذلك لقربهما من بعضهما، حيث شكلت درعا مصدراً مهمّاً لليد العاملة بالنسبة للسويداء بعد أن هاجر معظم شباب السويداء للعمل والتعلم خارج القطر، فكانت بحاجة إلى يدٍ عاملة في مجال الزراعة وفقاً لطبيعتها الزراعية، وأيضاً تحتاج للآليات الزراعية المتوفرة في درعا كالحصّادات والدرّاسات وغيرها من الآليات. وشكلت السويداء سوقاً لتصريف الخضار التي كانت تنتجها درعا، حيث استعاض أهالي السويداء عن سوق دمشق لتواجد الخضار والفواكه واللحوم في درعا.

في السنوات الأخيرة قبل الثورة أصبح أهالي السويداء غير مضطرين للنزول إلى دمشق؛ فدرعا تمدّهم بمنتوجاتها الزراعية والحيوانية، وبالمقابل تجار درعا يأخذون المواشي والتفاح والحبوب من السويداء، واقتصرت العلاقة بين المحافظتين على العلاقات الاقتصادية.

علاقة الجارتين إبان الثورة السورية

عندما انطلقت شرارةُ الثورة في درعا، وواجهها النظام بشتى أنواع القمع، ما كان من الجارة اللصيقة فيها إلا أن أبدت أول ردود فعل على مستوى الوطن السوري، حيث سجل المحامون أول اعتصام[1] لنصرة درعا بتاريخ 2011/3/27 وكانوا قد تلوا بياناً[2] في تاريخ 2011/3/24 أدانوا فيه قمع النظام ووحشيته وطالبوا بمحاكمة المجرمين. كما اعتصم شباب السويداء من 3/27 إلى 2011/3/31 وأشعلوا الشموع احتجاجاً على القتل والعنف الذي استخدمه النظام في درعا، وبعدها نفّذ مجموعةٌ من الناشطين اعتصاماً في ساحة مدينة صلخد بتاريخ 2011/4/1 نصرة لأهالي درعا، وما انفكّ شباب السويداء يصدحون باسم درعا في كل مظاهرة.

ومع بداية نزوح الأهالي من درعا هرباً من قتل وتنكيل النظام السوري، أعلن (معارضو السويداء) السويداء مضافةً لأهالي درعا، وقام الناشطون باستقبال الأهالي النازحين وتأمين المأوى والحاجات الضرورية لهم،

(1) الاطلاع على تسجيل الاعتصام على الرابط: www.youtube.com/watch?v=YuY9KfKFTTE
(2) الملحق، الوثيقة (1)

وبعدها قام بعض ناشطي السويداء بتوصيل الطعام والدواء للأهالي المحاصرين في محافظة درعا وتحديداً الحراك وبصرى الشام والغارية وغيرها من القرى المنكوبة، ليؤكدوا على وحدة الشعب السوري وأنه لا يقبل القسمة والتفرقة، ولضرب إستراتيجية النظام في تحييد السويداء معلنين في نشاطهم هذا نبذ الطائفية والمناطقية وأن الثورة السورية ثورة لكل السوريين على اختلاف انتماءاتهم الطائفية أو العرقية.

وقد بلغ عددُ النازحين من محافظة درعا إلى السويداء نحو 7000 نازحٍ، وبقيت العلاقة مستقرة إلى أن بدأ النظام ببثِّ الفتن والإشاعات، ومنها الفيديو الشهير للشيخ ***الخليلي*** الذي قام فيه بشتم الدروز والاستهزاء من تاريخهم، وتبين أن هذا التسجيل كان من ورائه المخابرات السورية فبدأت تسوء العلاقة وساهم في توتر هذه العلاقة عدة عوامل.

عوامل ساهمت في توتر العلاقة بين المحافظتين

1- ***عامل سياسي***: اتّبع النظام السوري ومنذ اللحظة الأولى لانطلاق الثورة إستراتيجية التفتيت والتذرير للبنى المجتمعية على أساسٍ طائفيٍّ ومناطقيّ، كما طرح مفهوم حماية الأقليات، وهذا المفهوم يحمل ما يحمل من عداء وتناحر بين أبناء المجتمع السوري، فيُظهِر الأكثرية الدينية على أنها متطرفة ودموية، ويظهر الأقليات على أنهم قاصرون وفي حاجة للحماية، وهذا ما داعب شعورَ الأقليات بالنقص باتجاه الأكثرية وجعلها تنجرف بأغلبيتها إلى مخطط النظام وإستراتيجيته ضاربة مفهوم المواطنة والشعب عرض الحائط. وحقيقةً هذا ما استفاد منه النظام السوري من حالة التوتر التي ولدها في مجتمع السويداء عبر دعايته الأمنية، كما استفاد من الخوف المسبق لدى الأقليات من الأكثرية السنية وشعورهم بالنقص. ونجح النظام في تفعيل الشعور الغريزي والقطيعي لدى أبناء المحافظة بضرورة التكتّل لردع الخطر السنّي المحدق. ومن جهة أخرى فشلت المعارضة في السويداء بتشكيل إستراتيجية وخطٍّ واضح يفنّد إستراتيجية النظام ويضربها في العمق، فالمعارضة أصلاً في السويداء نخبوية ولم تكن مندمجة في المجتمع أساساً، وليس لها حتى الآن حاضنة شعبية كبيرة. كل هذا أدى إلى فتور علاقة السويداء بالثورة بشكل عام، وتوتر العلاقة بين السويداء ودرعا بما أنها المحافظة الثائرة الأكثر قرباً.

2- ***عامل تاريخي***: لقد ذكرتُ سابقاً توتر العلاقة تاريخياً بين المحافظتين، وتتلخص في نقطتين أساسيتين:

أولاً: اعتقاد معظم أهالي السويداء أنه تمَّ خذلانهم من قبل جيرانهم في درعا في الثورة السورية الكبرى عام 1925، وأن مدينة السويداء وقراها قُصفت من قرى درعا.

ثانياً: هجمات البدو التي كان يعاني منها الجبل قديماً، وكانت درعا بوابة السويداء الغربية الأكثر احتضاناً وتصديراً للبدو وغزواتهم وهذا الانطباع السائد لدى أبناء السويداء.

3- ***عامل اقتصادي***: ذكرتُ في المقدمة أن السويداء من أفقر المحافظات السورية لولا الأموال التي تدخل إليها من دول الاغتراب، حيث يتوزع شباب السويداء في كلِّ بقاع المعمورة ولاسيّما فنزويلا والخليج، وهؤلاء الشباب خرجوا نتيجة التهميش المقصود من قبل النظام للسويداء وفق خطته في ربط الأقليات بعجلة النظام وجعل الأمن والعسكر عماده من الأقليات، فكلُّ من لا يرتبط عضوياً بهذا النظام مصيره الاغتراب والسفر لكي يؤمن لقمة القوت له ولأسرته، ونجحت هذه الخطة في قرى الساحل السوري حيث يتوزع العلويون، وفي السلمية ومناطق توزع الطائفة الإسماعيلية أكثر مما نجحت في السويداء.

استطاع النظام أن يجنّد شباباً من محافظة السويداء في صفوفه، وهم شبابٌ في غالبيته مهمّشٌ وعاطل عن العمل وينتمون في غالبيتهم إلى الطبقة الفقيرة والمسحوقة، حيث تمَّ تجنيدهم من قبل النظام مقابل مبالغ زهيدة، وهم بمنزلة المرتزقة لأنهم غير مؤمنين بما يقومون به، إلا أنهم يستطيعون من خلال تواجدهم مع الجيش وقوات الأمن السوري تحسين ظروف معيشتهم، وذلك عن طريق الغنائم الكثيرة التي يغنمونها أثناء مهاجمتهم ودخولهم إلى المناطق الساخنة ولاسيما درعا وقراها بحكم قربها من السويداء، وهذا ما زاد في توتر العلاقة بينها وبين السويداء.

4- ***عامل ديني***: ينتمي غالبية سكان جبل العرب إلى مذهب التوحيد، وهم جماعةٌ دينية يمكن وصفها بالمحافِظة والمنغلقة، تخاف الاختلاط بغيرها من الأديان، ولديها مظلوميتها التاريخية على أساس أنها سكنت الجبال الوعرة خوفاً من بطش الأكثرية لها. لذلك سيطر على معظم أبناء السويداء الخوف من تمدّد الجماعات السلفية والمتطرفة في درعا كجبهة النصرة وغيرها من الجماعات الإسلامية المتشددة، وأخذوا يفاضلون بين التطرف والاستبداد، وجنحوا باتجاه النظام على مبدأ أخف الشرَّين.

ومع العلم أنه صدرت بيانات عديدة من قبل أهالي درعا وعشائرها وقيادتها العسكرية تهدف إلى طمأنة الدروز، ولاسيّما بيان مجلس قبيلة النعيم(3)، والبيان الصادر عن عشائر اللجاة(4)، والبيان الصادر عن الجيش الحر الجبهة الجنوبية(5) في تاريخ 16 تشرين الثاني عام 2014. وكان مفادها التحذير من الفتنة التي يسعى لها النظام وأعوانه، والتأكيد على حسن الجوار، والإشارة إلى تاريخ بني معروف المشرف والوطني، وبثّ مقولة سوريا لكل أبنائها.

فوضى السلاح في السويداء وأثرها على درعا

استغل النظام السوري نقطتين أساسيتين في محافظة السويداء؛ النقطة الأولى: خوف أهالي السويداء الدروز من الأكثرية السنية، النقطة الثانية: المستوى الاقتصادي المتدنّي للمحافظة وبطالة معظم شبابها.

---

(3) الاطلاع على البيان: www.alwatanvoice.com/arabic/news/2014/08/19/580052.html
(4) الإطلاع على البيان: www.facebook.com/ananas4957/posts/426684457473329
(5) الملحق، الوثيقة (2).

حيث قام النظام باستدراج المحافظة شيئاً فشيئاً إلى التسليح، بدايةً نشر دعايات مفادها أن أهالي درعا سوف يستهدفون أمن السويداء، ومن ثَمَّ رتّب ملفات الاختطاف وهي مازالت قائمة إلى الآن، وبعد أن حصل على ما أراده من إخافة الأهالي طرح نفسه كمنقذٍ وحامٍ لأهالي المحافظة، ووزع السلاح في القرى والمدينة بداية للحماية الشخصية، وأظهر أن لا نية لديه باستخدام أبناء المحافظة وسلاحهم خارج حدود السويداء، لكنهم فقط مجرد **لجان شعبية** مهمتهم حماية أحيائهم وقراهم من الهجمات المزعومة من قبل أهالي درعا، وكانت هذه اللجان الشعبية تطوعية ولا تأخذ أية رواتب أو مخصصات من السلطة، إلى أن صدرت الأوامر بتشكيل **جيش الدفاع الوطني** فأصبحت هذه اللجان منظّمةً ومجدولة لدى النظام وقام بصرف رواتب لهم ومخصصات، وبدأ يطلب منهم الخروج في مهمّاتٍ قتالية إلى درعا وغيرها من المحافظات السورية. هنا نجح النظام باستدراج الشباب وجرّهم إلى الصدام المباشر مع أهالي درعا، ومن رفض منهم الخروج في المهمات نزع منه سلاحه وأبعد عنه عطاياه. وتتراوح رواتب **جيش الدفاع الوطني في السويداء** ما بين **15 ألفاً** و**50 ألفاً** حسب المهمات الموكلة لهم. وبهذا يكون النظام قد نشر السلاح بين المهمَّشين والعاطلين عن العمل في السويداء بالتزامن مع سريان نظريته القائمة على مبدأ حماية الأقليات وما يحمله هذا المبدأ من تخويف للأقليات وتكريس لضعفهم وتبعيتهم وقصورهم. وشيئاً فشيئاً بدأت تكبر **الميليشيات المسلحة** التابعة للنظام في السويداء؛ حيث تجاوز عدد **الجيش الوطني عشرة آلاف مقاتل**، كان مسؤولاً عنها في البداية العقيد المتقاعد ***جمال غانم*** إلا أنه اتُّهِم بالفساد وسرقة مخصصات **الدفاع الوطني** فاستلم بعده العقيد ***مروان القاسم***. ويضم **جيش الدفاع الوطني** وينسق مع مجموعة من **الميليشيات** وأهمها:

1- ***ميليشيا الحزب القومي السوري***، وهي تابعة **للحزب القومي السوري الاجتماعي**. وهذا الحزب له منفّذٌ عامٌّ في السويداء وهو ***سمير الملحم***، وتعد هذه الميليشيا من أخطر الميليشيات التي تهدد أهالي حوران.
2- ***ميليشيا حزب الله***، وهي تابعة **لحزب الله** في لبنان بشكل مباشر، وهذه الميليشيا يتم تمييزها باللباس والرواتب وتقوم بإرسال بعض عناصرها إلى إيران ليتلقوا هناك دورات تدريبية تتراوح مدتها بين الشهر وثلاثة الأشهر، ومن ثَمَّ يعودون كمدرِّبين إلى السويداء.
3- ***كتائب البعث***، تابعة **لحزب البعث العربي الاشتراكي**، مسؤول عنها رئيس اللجنة الأمنية في السويداء ***شبلي جنّود***، والمسؤول العسكري هو العقيد نوّاف أبو حمرة، وخرّجت حتى الآن ستَّ دوراتٍ، أعدادها بتزايدٍ حيث بلغ تعداد مقاتليها 2600 مقاتلٍ، ورواتبها أفضل من باقي الميليشيات، ومعظم عملياتها تكون خارج السويداء ولاسيما في درعا.
4- ***ميليشيا حزب التوحيد***، وهي تابعة ***لحزب التوحيد العربي*** الذي يتزعمه ***وئام وهاب***، وهو نائبٌ درزيٌّ سابق في البرلمان اللبناني، لا يتمتع بشعبيةٍ كبيرة بين دروز لبنان، فتح مكاتب لحزبه في السويداء بالتنسيق مع النظام السوري وبدأ بتوزيع الأسلحة على الشباب وبعض المشايخ، وتقوم هذه الميليشيا بالتنسيق مع جيش الدفاع الوطني.

5- ***مقاتلو جمعية البستان***، وهي جمعيةٌ أسسها ***رامي مخلوف*** وهو رجل الأعمال السوري المعروف قريب الرئيس السوري ***بشار الأسد*** وواجهته الاقتصادية، وهي مرخصةٌ كجمعية خيرية كانت تساعد الأسر العلوية في القرى وبعض أحياء دمشق كالمزة 86 وعش الورور وبعض الأسر من باقي أطياف المجتمع السوري كدعاية لهذه الجمعية، ولكن في ظل الثورة دخلت هذه الجمعية الإرهابية الكثير من المناطق السورية، وبدأت تجنّد الشباب وتوزع الأسلحة وتشتري الولاءات. والمسؤول عن هذه الجمعية في السويداء هي ***زوجة العميد عصام زهر الدين "هند زهر الدين" وابنه يعرب***، حيث يقومون بتطويع الشباب ومنحهم رواتب مقابل التزامهم بالمهمات التي يوكلونها لهم. هذه المجموعات كلها تنسق مع جيش الدفاع الوطني، إلا أنها تأخذ أوامرها ورواتبها من مسؤوليها المباشرين، ومعظم هذه الميليشيات عاملة في درعا ولاسيّما **ميليشيا القومي السوري وكتائب البعث** و**ميليشيا جمعية البستان.** وهذه المجموعات تعطى الصلاحية الكاملة بالقتل والسرقة ودهم المنازل. كل هذا في درعا، أما في السويداء تترك مهمة ملاحقة الناشطين واعتقالهم للقوى الأمنية ولاسيّما فرعا **الأمن العسكري** و**الأمن السياسي.** فوضى السلاح هذه وانتشاره وتنظيمه فيما بعد، أثرت على علاقة السويداء بدرعا، حيث اعتبر أهالي درعا وقياداتها أن من واجب وجهاء المحافظة ومشايخها ردع هؤلاء الشباب ومنعهم من محاربة أهالي درعا، والانخراط بهذه المليشيات القائمة على السلب والنهب والقتل، كما بيّنوا نتيجة هذه الأعمال وأثرها على حسن الجوار بين المحافظتين، كما ارتفعت وتيرة الخطاب في بعض الأحيان ولاسيّما في بيان ألوية العمري(6).

مع العلم أن **مشايخ السويداء** وبعد اجتماع شيحان اعتبروا أن من يُقتل خارج حدود السويداء ليس بشهيد، وأدانوا كل من يقاتل خارج حدود السويداء. ورغم هذا بقيت العلاقة متوترة بين المحافظتين.

ثوار السويداء في درعا

انشق مجموعةٌ غير قليلة من أبناء محافظة السويداء عن جيش النظام وقوى الأمن، منهم من التزم بيته ومنهم من التجأ إلى خارج سوريا، وبعضهم الآخر قرر المشاركة في الثورة المسلحة، ولكن واجهت هؤلاء المنشقين مشكلة عدم قدرتهم على البقاء في محافظتهم وذلك لسببين رئيسين:

1- ***عدم وجود حاضنة شعبية في محافظة السويداء للمنشقين*** الدروز والجيش الحر بشكل عام.

2- ***عدم رغبة المعارضة في السويداء إقحام السويداء في العمل العسكري***، وذلك خشية الاقتتال بين أبناء المحافظة وخرق السلم الأهلي؛ ورؤيتهم هذه ترتكز على أن السويداء قد تؤدي دوراً في الثورة يكون وفقاً لظروفها أهم من العمل العسكري. ولذلك اتجهت جهود معارضة السويداء باتجاه استقبال النازحين وتأمين

(6) للإطلاع على البيان: http://goo.gl/Mxkl9O

ملاذٍ آمن لهم ودعمهم وفق الإمكانات المتاحة، وحرصت على إبقاء السويداء منطقة آمنة وبعيدة عن العمل العسكري مع موافقتهم على العمليات العسكرية النوعية شريطة ألا يكون انطلاقها من السويداء.

عندها وجد هؤلاء المنشقون أن لا سبيل لهم إلا الالتجاء إلى درعا مهد الثورة وجارة السويداء والانخراط في صفوف الجيش الحر هناك، ومن ثَم يدخلون إلى السويداء مع إخوانهم السوريين كمحررين لها من نظام الأسد. وكان أول المنشقين الدروز المهندس الملازم خلدون زين الدين الذي أسس كتيبة سلطان الأطرش في تاريخ 2011/12/7 وبعدها توالت انشقاقات أبناء الدروز تباعاً عن جيش النظام وانضمامهم إلى **كتيبة سلطان الأطرش**. ومن الجدير بالذكر أنه تمَّ احتضان ثوار السويداء في درعا وعوملوا معاملة جيدة جداً، وتم دعمهم من قبل أهالي درعا، يقول أحد مقاتلي كتيبة سلطان الأطرش وهو ***أمير الجبر***: إن حاضنتهم في درعا قوية جداً ولا تقلُّ عن شعبية الكتائب من أبناء درعا، ويضيف: إننا نعيش في درعا وكأننا بين أهلنا وتربطنا علاقة وثيقة بالأهالي.

فيما بعد شكل ***خلدون زين الدين*** **تجمع كتائب السهل والجبل**، وتضم **كتيبة سلطان الأطرش وكتيبة شهداء الحراك** و**كتيبة أسود السنة**، وقامت بمجموعة من العمليات في محافظتي درعا والسويداء؛ من أهمها ضرب كتيبة الدفاع الجوي في السويداء، وضرب حاجزي المجيمر وتعارة ونقطة مرور حزم، ومعركة جسر حوران في درعا.

وكانت أهم العمليات التي قام فيها هذا التجمع، **ضرب نقطة الرادار** في 13 كانون الثاني 2013 **وعملية دخول السويداء** وما عُرِف **بمعركة ظهر الجبل**، حيث تسلل مجموعة من المقاتلين على رأسهم **خلدون زين الدين** إلى السويداء بعد التنسيق مع مجموعة من الناشطين داخل المحافظة، وبلغ عدد المقاتلين العشرات، استوطنوا ثلاثةً من البيوت المهجورة في منطقة ظهر الجبل، ورافق دخولهم إلى السويداء ظروفٌ مناخية سيئة للغاية، وتعرضت المنطقة لعواصفَ ثلجيةٍ شديدة، حيث اضطروا للمشي عشرات الكيلو مترات فوق الثلوج, وكان مخطط الحملة التمركز في منطقة ظهر الجبل وهي منطقة عالية جداً وذات طبيعة جغرافية صعبة، وتنفيذ عمليات نوعية داخل محافظة السويداء تمهيداً لتحريرها بمساعدة الثوار داخل المدينة، ولكن الحملة قد فشلت ويعود ذلك إلى ثلاثة أسباب:

أولها: انفضاح أمر الحملة التي كانت تعوّل على السرية التامة.

وثانيها: الظروف المناخية الصعبة.

وثالثها: التنسيق الضعيف مع ناشطي المحافظة وعدم توفر الشروط الموضوعية لنجاح الحملة، وأهمها عدم وجود الحاضنة المهيَّأة لاستقبال عمل عسكري كهذا.

وقد استمرت المعركة ثلاثة أيام قُتل وجرح خلالها العشرات من قوات النظام، واستشهد خلدون زين الدين وخمسة عشر مقاتلاً من رفاقه، ومن ثمة انسحب المقاتلون وعادوا إلى درعا. بعدها تشكل **المجلس العسكري في السويداء** في تاريخ 2012/12/15 وقائده ***العقيد مروان الحمد*** وهو ضابطٌ منشقٌ عن قوات النظام وشارك في العديد من العمليات العسكرية في درعا، وكان أهم هذه العمليات المشاركة في معركة جسر حوران لتحرير خربة غزالة. وقد عانى المجلس العسكري من قلة الدعم والتدخل الدولي فيه مما أدى بالعقيد مروان الحمد إلى إعلان استقالته في تاريخ 2013/11/23 وورد في بيان استقالة العقيد مروان الحمد "المجلس العسكري الثوري في محافظة السويداء منذ تشكيله حتى اليوم (أي تاريخ الاستقالة) لم يتلقَّ أي قطعة سلاح أو رصاصة واحدة من قبل أركان الجيش الحر أو جهة أخرى" كما ورد في البيان السبب الأساسي للاستقالة "لقد كان ومازال السبب الأساسي لانسحابي هو الحصار المفروض على تسليح الثوار والمقاتلين التابعين للمجلس العسكري لمحافظة السويداء إقليمياً وداخلياً وتوافق هذا عن قصد أو غير قصد مع جهود النظام الحثيثة لتحييد المحافظة". وبعدها تم تشكيل مجلس عسكري جديد للسويداء بقيادة ***سالم السعد*** من قيادة الأركان، وهذا المجلس صوري لا ركيزة له في أرض الواقع. بعدها خرجت **كتيبة سلطان الأطرش** من درعا على إثر اختطاف **جبهة النصرة** لبعض عناصرها وقائدها ***فضل زين الدين*** الذي أطلقت سراحه وأبقت على اثنين من المخطوفين لديها وهكذا انتهى وجود ثوار السويداء في درعا.

ملف الاختطاف

حدثت بعضُ حالات الاختطاف المتبادل، كردّة فعل من قبل الطرفين أي أهالي درعا والسويداء، الطرف الأول كان هدفه من الخطف الانتقام من بعض المسلحين الدروز الذين يدخلون إلى درعا مع جيش النظام، والطرف الثاني كان هدفه الانتقام للشباب الدروز الذين تمَّ اختطافهم في درعا.

وبقي الخطف عبارةً عن حوادثَ صغيرةٍ كان الوجهاء والعقلاء من الطرفين قادرين على حلّها وتطويقها، إلى أن أصبحت عملاً منظماً من قبل السلطة لزجِّ المحافظتين في صراع دموي تكون هي المستفيد الأكبر منه، ولها من وراء ذلك أهداف ثلاثة:

1- ***تصوير الثورة على أنها حربٌ طائفية*** تشنها الأكثرية السنية على الأقليات، ومن ثمة إخراج السويداء خارج نطاق الثورة كلياً وتشويه صورة الثورة.

2- ***أهداف عسكرية***؛ حيث تُعتبر درعا من الجبهات التي تؤرق النظام، وهي جبهةٌ قتالية حامية جداً والفتنة بينها وبين السويداء تُخرج النظام من هذه الأزمة، أي مواجهة الثورة في درعا، ويزجُّ بالسويداء كرأس حربة فيلتهي الثوار عنه بحربهم مع جيرانهم الدروز.

3- ***أهداف مالية***، المبالغ الطائلة التي تُدفع من قبل أهالي المخطوفين كفدية لإطلاق سراح أبنائهم، وقد بلغت الأموال التي دفعها أهالي السويداء وحدهم نحو 500 مليون ليرة سورية وهذه الأموال تعود بشكل مباشر

للمسؤولين الفاسدين في السويداء، فهم شبكة تعمل بشكل مافيوي ولها أذرع في كل مكان سواء في السويداء أم في درعا بين الدروز أو البدو أو السنة.

ومن الجدير بالذكر أن نحو 80% من حالات الاختطاف في السويداء تمت في أماكن سيطرة النظام، وسكان هذه المناطق من الموالين لنظام الأسد، فكل المؤشرات تدل على أن النظام مشرفٌ عبر أجهزته الأمنية في السويداء على ملف الاختطاف. وذلك لأنه صاحب المصلحة والمستفيد الأكبر من ذلك، ولأن هذه الحالات وقعت في مناطق سيطرته.

ومن المعلوم أيضاً أن النظام يُحكِم قبضته الأمنية على السويداء، فهو يتتبّع الناشطين في كل مكان، حتى إنه يتابع ما يكتبونه على صفحات التواصل الاجتماعي. وكان يعلم بالمظاهرات قبل حدوثها رغم السرية التامة من قبل الناشطين، فهل من الصعب عليه أن يتتبّع ويمنع عمليات الخطف؟

ويعدُّ ***وفيق ناصر*** **رئيس فرع الأمن العسكري** في السويداء سيِّئ الصيت، عرّابَ الفتنة بين السويداء ودرعا، وتحيط به شبكة من المخبرين واللصوص وقطاع الطرق من كلا المحافظتين، ويعتمد على مجموعة من البدو اعتماداً كبيراً في هذا الملف وهي مجموعة الشيخ ***جامل البلعاس*** وهو مساعد أول في الأمن العسكري وعلى صلة وثيقة ***بوفيق ناصر***، وهو من بدو قرية المزرعة في السويداء وعلى اتصال مع قرى البدو المتاخمة لحدود درعا. وكانت هذه الشبكة قبل الثورة تعمل في تهريب الحشيش والمخدرات والسلاح، وفي ظل الثورة انضم قسمٌ منهم إلى الجيش الحر وبقي على ولاء مع مصالحه التي يحققها الأمن العسكري في السويداء. وقد كشف ***قيس القطاعنة*** قائد **لواء العمري** بعضاً منهم، وكانت له أيادٍ بيضاء في هذا الملف، وبقي قسمٌ منهم في السويداء يتعاون مع الأمن العسكري وينسّق مع العملاء الموجودين في الجيش الحر لهندسة عمليات الاختطاف؛ فهؤلاء لا يهمهم إلا الربح وتسهيل أمورهم الخارجة على القانون.

كما أن معظم حالات الخطف التي تمّت بين المحافظتين كان فيها دائماً حلقة ناقصة، وكل المخطوفين الذين قابلتهم وهم ينتمون إلى المعارضة في السويداء كانوا يُجمعون على نقطتين أساسيتين؛ أن الاختطاف لعبةٌ مخابراتية بامتياز، وأن التعذيب وطريقة المعاملة التي تلقوها أثناء الاختطاف كانت شبيهة، إذا لم نقل المعاملة نفسها، بالمعاملة التي تلقوها سابقاً في ظروف الاعتقال لدى الفروع الأمنية التابعة للنظام.

إن كل الدلائل والقرائن تشير إلى أن نظام الأسد هو الساعي باتجاه الفتنة بين السويداء ودرعا، ويرى بملف الاختطاف باباً يفتحه على الفتنة كلما شعر باستقرار العلاقة بين المحافظتين.

الخاتمة

درعا والسويداء بوابة دمشق الجنوبية، ويدرك نظام الأسد خطورة هذه البوابة على بقائه، لذلك سعى وسيسعى جاهداً لإثارة الفتنة بين المحافظتين وتفتيت النسيج المجتمعي وفق إستراتيجيته في التفتيت والتذرير وتعزيز حرب

الجميع ضد الجميع. وربما نشهد في المستقبل أيضاً محاولات جديدة بصيغ جديدة من قبل النظام تجاه المحافظتين، فقد اشتغل النظام في بداية الثورة على الدعايات الأمنية وبثّها في المجتمع، ثم انتقل إلى إقحام أبناء الدروز في مقدمة حملاته على درعا ليؤجج الروح الانتقامية والفتنة، وعندما فشل في مسعاه انتقل إلى أسلوب الخطف والخطف المتبادل.

بالمقابل لم يكن تعامل المعارضة السياسية في الخارج، التي قبضت على التمثيل السياسي، بالمستوى المطلوب. فقد كان، ومازال، التعامل مع تنوع الشعب السوري يحتاج إلى فكر وسلوك وطني ديمقراطي، يعلي من شأن المشتركات، ويضمن المساواة في الحقوق والواجبات، بما فيها التمثيل على الصعيد الوطني، على أسس ديمقراطية، وبعيد عن الشكليات التي حوّلت وجود سوريين لنوع من الزينة. واذ كان المشهد المعارض العام يحوي الكثير من التشكيلات المطلوبة، إلا أنها ليست من الأطراف المتحكمة في مجريات الهيئات التمثيلية.

وتحتاج العلاقة بين السوريين على تنوعهم إلى رؤيةٍ عامة وبرنامج وسلوك مبنيٍّ على قراءات دقيقة، تنتج بتضافر جهود المثقفين والسياسيين، كما تُبنى على المشاركة السياسية للناس أنفسهم عبر صوتهم وتمثيل يرتضونه. وهو ما يحتاج لعمل على مستويات، على الرغم من الظروف القاهرة التي يفرضها حكم الاستبداد. نقترح التفكير بوسائلَ إبداعيةٍ، وفي هذا الصدد يمكن طرح مجموعة من المقترحات على المعارضة :

1- وفقاً لظرف المحافظة الحالي من عدم وجود حاضنة للمعارضة، يجب على المعارضة إيجاد هذه الحاضنة، وذلك من خلال خطاب يفند خطاب النظام الذي يعتمد على فكرة حماية الأقليات والانتقال من مقولة حماية الأقليات إلى مقولة المواطنة والشعب.

2- الخروج من ثنائية الأكثرية والأقلية لصالح مفهوم الديمقراطية التي لا تعترف على هذه الثنائية إلا في صناديق الاقتراع.

3- بناء الثقة بين مكونات الشعب السوري، بعد أن عمل النظام من خلال إعلامه ودعاياته الأمنية على تفكيكها.

4- العمل على إيجاد هيئات اجتماعية داعمة للثورة تُعنى بالسلم الأهلي ولاسيما في درعا والسويداء.

5- العمل على تبديد شعور الدروز بالتهميش من خلال إشعارهم بالمشاركة في صنع مستقبل سوريا.

6- الابتعاد عن التمثيل الصوري للمحافظة في الهيئات والمنابر السياسية، والعمل بمسؤولية للوصول إلى التمثيل الحقيقي الذي يعبر عن المحافظة.

وأخيراً أقول يجب علينا ألا نضع المشكلة خارجنا بل علينا الاعتراف بها بكل مسؤولية كخطوة أولى على طريق الحل.

الملحق



خريطة المحافظتين بناء على خرائط "غوغل"

سيادة رئيس الجمهورية العربية السورية

الدكتور بشار حافظ الأسد

تحية الحق والعروبة :

أمام تسارع الأحداث في المنطقة عامة ، وفي قطرنا الحبيب خاصة ، نجد لزاماً علينا نحن محامي فرع السويداء ، إظهار موقفنا من هذه الأحداث للتأكيد على وحدة الصف الـوطني واستمرارية الحفاظ على أمن الوطن والمواطن . الأمر الذي يستدعي تحقيق المسائل التالية :

١ — رفع الطوق الأمني المفروض على مدينة درعا والتحقيق الجاد والشفاف بـالحوادث الـتي ترافقت بإطلاق الرصاص الحي على المواطنين العزّل بمعرفة لجنة قضائية نزيهة تشارك فيهـا نقابة المحامين .

٢ — السماح لوسائل الإعلام كافة بممارسة دورها بما يتلاءم وحرية الإعلام ومهنيته .

٣ — رفع حالة الطوارىء والأحكام العرفية وإلغاء المحاكم الاستثنائية ، وكفالة الحق الدستوري بالتظاهر السلمي .

٤ — إصدار العفو الخاص عن كافة معتقلي الرأي وإطلاق سراحهم فوراً وتسوية أوضـاعهم الوظيفية والنقابية .

٥ — تحقيق مبدأ فصل السلطات ، والتفعيل الحقيقي لاستقلال القضاء .

٦ — إلغاء النصوص القانونية التي فرضت حالة الوصاية على النقابات المهنية .

٧ — إصدار قانون عصري للأحزاب .

٨ — مكافحة الفساد ومحاسبة المفسدين أياً كانت مواقعهم وصفاتهم .

٩ — تحديد صلاحيات الأجهزة الأمنية ، وإلغاء رقابتها عن التعيينات للوظائف العامة ، وإلغاء رقابتها أيضاً عن منح التراخيص لطالبيها ، وحصر ذلك بجهة إدارية مستقلة .

١٠ — تشكيل لجان قانونية ومهنية متخصصة لإعادة النظر بالقوانين الـتي تخـالف المبـادىء والأعراف الدستورية ليصار إلى إلغائها أو تعديلها .

نرجو التفضل بالإطلاع وتفضلوا بقبول الاحترام

السويداء في ٢٠١١/٣/٢٤

رئيس فرع نقابة المحامين

الوثيقة (1)

الجبهة الجنوبية

الجيش السوري الحر

الجبهة الجنوبية

بيـــــــــــان

رقم ٣

إلى أهلنا، إلى أخوتنا بني معروف
نخاطب فيكم الوطن ونخاطب فيكم أصالتكم، نخاطب فيكم جبل العرب وجبل الشيخ. نخاطب فيكم الثورة السورية الكبرى ونخاطب فيكم سلطان باشا الأطرش.

حتى هذا اليوم ونحن ننتظر منكم الموقف الوطني النبيل كما عهدناكم، فاستمعوا إلى صوت العقل والحكمة الذي طالما كان صوتكم.

لم نقاتلكم يوماً ولا نبغي ذلك مستقبلاً، ولا زلنا ننتظر وقفة بني معروف مع أهلهم وأبناء وطنهم، فالظلم زائل والطغيان زائل، وستبقى سوريا وسينتصر الحق وستنتصر الثورة.

نثمن عالياً مواقف الحكماء ورجال الدين والنشطاء والسياسيين منكم، ونريدكم معهم لتشدّوا على أيديهم، فهم أحرص من النظام عليكم. ونعتبر أن موقفكم الحاسم من حادث الخطف الذي استهدف مدنيين في قطنا منذ أيام، وعملكم الحثيث لردع هذه الظاهرة هو خطوة في الطريق الصحيح، وسنقابلها بخطى مماثلة في مقبل الأيام.

إن الأحداث الأخيرة التي جرت في جبل الشيخ هي دليل آخر على ما يريده النظام لأبناء سوريا من ضغينة واقتتال، وقبلها أحداث داما في جبل العرب. وقد دافعنا في جبل الشيخ عن أرضنا وكرامتنا، وكان واضحاً أمام الجميع ما جرى من دفع أبنائنا إلى معركة خاسرة مع أخوتهم، وتركهم في أرض المعركة بين قتيلٍ وجريح. وهذا ما أسفنا له، ولا نريده أن يتكرر مرة أخرى.

إننا أبناء سوريا، تاريخنا واحد وأرضنا واحدة، ونريد أن نكون أصحاب قرارٍ ومصيرٍ واحد كما كنا وكما سنبقى.

عاشت سوريا الحرة

السادس عشر من تشرين الثاني ٢٠١٤

الوثيقة (2)